حكيم فيلسوف يتكلم...

للأســـتاذ راجي الراعي

مشى كعادته في كل صباح إلى ساحة المدينة بخطوات الفيلسوف الحكيم ، وأقبل عليه الناس فحمد الله وشكر ، ثم حدجهم بنظراته القوية الصافية العميقة ، فانشق ألف حجاب ، وانقلب الظل شعاعاً ونجمات الفلسفة ، وعبق الجو بالروحانية ، وفاح عطر الحكمة ...

وسأله واحد من الجمع :

حدثنا أيها السيد عن التضحية فقال :

— جميل أن تضحوا بنفوسكم في سبيل المثل العليا ، وأجمل منه أن تبقوا أحياء لتكملوا أداء الرسالة الروحية ...

جميل أن تحترقوا ليستضاء ويهتدى بنوركم ، وأجمل منه أن لا تضرموا فيكم الأحطاب لتتقذوا من تأكله النار ، وتقطعوا منه ألسنة اللهيب .

لا تغرقوا أنفسكم في بحر الوجود ليتسنى لكم أن تنقذوا الغرقى .. وكلما أنقذتم غريقاً وأقلتم في وجهه باب الموت فتح لكم باب في السماء ...

أبقوا الناجل في أيديكم لتحصدوا حصادكم ... إن الحياة ليست بمعطف تلقونه بسرعة وخفة عن أكتافكم ، ولا هي قطعة النقد ترمون بها في الخزانة .. إن للحياة وزناً وثمناً .. إن لها حوضاً من مائها لا يجوز لكم أن تفرغوه في لحظة لتسقوا الأرض مهما اشتد جفافها وطال ... إن مياهكم تنبع من صدر الله .. الحياة أمانة في أيديكم فمن جازف بها خان الأمانة وإن ارتدت خيانته ثوب الصدق والإخلاص ...

وسأله آخر : ما هي كلمتك في الكبرياء أيها الحكيم فقال :

— لا صغير ولا كبير في الكون ... كل شعاع من الشمس شمس مقتضبة وكل قطرة من البحر بحر بليغ ، وكل حبة من الرمال صحراء مكبوتة ، وكل نسمة في الأثير أثير ينطوي على نفسه. الجزء في الكل والكل في الجزء ، والكل واحد ... إن في الذرة الصغيرة ما في الأفق الذي لا حد له ، هما صفحتان في كتاب وعينان في وجه ...

ليس لأحدكم أن يشمخ على الآخر :

الحجر يقول للجدار : لولاي لم تكن ، والجدار يقول للحجر : لولاي لم تأو وسادة تلقي عليها رأسك ... الخمرة تقول للكأس : لولاي لم تنعم بك شفة ، والكأس تقول لها : لولاي لذهبت هدراً ...

لا كبير ولا صغير في الكون ...

إن الرسالة واحدة وإن تغير الغلاف ، وأصل الحياة واحد وهدفها واحد فلا تشمخوا بأنوفكم على الخلق ... إن العود والعود تجمعكم في صعيد واحد ...

كلما شمختم على الآخرين وتخيلتم أنفسكم عظاماً ضربتكم القبور بها كل عظامها ...

وارتفع في الساحة صوت ملائكي يسأل عن الصلاة فأطرق الفيلسوف ثم قال :

— الصلاة هدير بحر الإيمان ، والرسالة التي تقف بها سفنكم في مرفأ الخالق ... الصلاة هي وهج الإيمان الذي يشتعل فيكم فكأنما ألقيتم الأحطاب في ناركم سيتم .. هي الحنين إلى الأصل الذي جئتم منه ، وإلى الوطن الأكبر الذي تهتم عنه ..

إنكم تصلون لتطلبوا إلى الخالق إكمال ما نقص فيكم وإيقاظ ما كمن في أعماقكم ولتبلغوه شوقكم إلى الآخرة ، إلى اليوم الذي تنطلقون فيه من أسر هذه الكرة التي تمتد بكم وتدميكم بقيودها ، ولتفتحوا له جراحاتكم فيرى فيها مواضع الألم وطوابع المجرمين وحنق الطغاة وقسوة الزمن ...

الصلاة لسان الظمأ الناري في النفس يستجدي الماء من ينابيع النعيم ... وأنتم كلما حطمتم على جريح أقمتم له هيكلا ، وكلما حطمتم سيفاً من سيوف الغدر والخيانة والظلم برق لكم سيف في السماء ، وكلما قابلتم الإثم والرذيلة بجباه مقطبة بسم لكم السيد ...

الصلاة أن تستعجلوا الرحيل من هذه الفانية ...

وإذا صليتم فلا تنسوا هذه الكلمات :

اجعلني يا رب صالحاً للمثول بين يديك ... اعطني جناحين

مسلكها فى الحياة من بواعث نفسية وإرادة إنسانية ، من تقدير شخصى ، وعن عواطف وميول ، ودوافع داخلية هى ملك لها وجزء من كيانها المنوى ، وتميزها عن غيرها من أبناء جنسها وتلون مسلكها فى الحياة بألوان تختلف عما عند الآخرين اختلافا قد يكون كبيراً ، وقد يكون طفيفاً ولكنه جوهرى وذو خطورة عظمى ، لأنه هو الذى يهب الإنسان إنسانيته ويسبغ على كل فرد فرديته . وهو الذى يجعل من كل إنسان كوناً شاملا شاسعاً غامضاً يستحق الدراسة والتأمل ، كوناً منطقياً تارة وغير منطقى تارة ، تتصارع فيه الأهواء والعواطف والشهوات والأفكار وجميع العوامل النفسية والانعكاسات الخارجية . من هذا الصراع الداخلى ، جلياً كان أو خفياً ، ومن اصطدام حرية الفرد بحرية الآخرين ؛ ومن نضاله ضد قوانين الكون الراسخة ، تنفجر درامة الحياة الواقعية بما فيها من مآس ومهازل وأبطال هم بنو الإنسان جميعاً . وكلهم شاهد ، وكلهم ممثل . وكلهم يلعب دوراً أصيلا فى الدرامة ؛ دوراً لايلغى شخصيته ولوكان ملغى الشخصية ، ولا يجعل منه نسخة من الآخرين لأنه يصدر فى عمله عن نفسه ، عما فيه من صفات ؛ حتى عند ما يحاكى الآخرين ؛ لأنه وجود إنسانى له كيانه . درامة الحياة هذه هى التى يجدر بالكاتب المسرحى أن ينقلها لنا على المسرح كما يراها بعينه وكما يدركها هو ؛ ينقلها بأبطالها بعد أن يتقمصهم الممثلون .

أما شخصيات الأستاذ توفيق الحكيم فى رواية سليمان الحكيم فهى أشبه بالآلات ؛ تأتيها الحياة من خارجها بدل من أن تنبثق من داخلها ؛ وتفرض عليها الحركة من السماء فرضاً بدلا من أن تخلق هى الحركة ؛ لذلك كانت كلها بسيطة متجانسة تجانس حبات القمح ، حتى عند ما تبدو مختلفة بعض الشيء . وذلك لأن أفعالها وتصميماتها غير ذاتية . ومرجع هذا كله ، مرجع انعدام الصراع وعدم التميز والحياة الحقيقية فى شخصيات سليمان الحكيم إنما هو إلى دعوى المؤلف أن الحب وسائر أمور القلب ، بل كل وازع خلق وكل ما يستطاع الحكم به على سلوك الفرد والجماعة إنما هو أثر لقدر صارم يضرب ضربته حيث يريد هو ، لا حيث نريد نحن . وتلك عقبة كبرى تحول بين القصة وبين المسرح ، لأن المسرح كما قلنا يشترط الحياة والحركة ، الحركة الداخلية والحركة الخارجية ، والارتباط بين هذه وتلك . ولكننا إذا أخذنا أبطال الحكيم واحداً واحداً ، وقذفنا بهم خارج الرواية لنحل عليهم أفراداً غيرهم أياً كانوا ، لبلغت الرواية نفس النتيجة التى بلغتها ولما تغير شيء فى الوجود ، ما دامت القوة الخفية هى القوة الخفية والإطار المسادى الذى يحيط بهم هو هو لم يتغير . فهى أشخاص تشبه العرائس الخشبية (marionettes) قد تصدر عنها حركات بهلوانية عجيبة ، ولكن الفضل فيها يرجع إلى اليد الخفية التى تحركها من وراء الستار . وإلا فهل يمكن لإنسان ، ولوكان المؤلف نفسه ، أن يستخرج لنا من قصة سليمان الحكيم صورة لسليمان تتبين فيها أنموذجاً بشريا خاصاً ؛ أو حتى صورة إنسانية شائعة ؟ وأرجو من القارئ الكريم ألا يخلط بين ما قد يكون فى ذهنه من صورة لسليمان الذى عرفه فى النصوص القديمة وصورة سليمان الذى نفتش عنه عبثاً فى القصة .

فلسنا نعرف شيئاً من باطن سليمان ، ولا من مذهبه فى الحياة إن كان له فيها مذهب ، ولا عن وازعه الخلقى ، ولا من صلة كل هذا بما يظهر من أعماله فى الحياة الخارجية وبحظه فيها من سعادة وشقاء له ولمن يحيط به . بل كل ما نعرفه عنه أنه أوتى الحكمة والثراء ، وأنه أحب بلقيس قضاء وقدراً ، وأن بلقيس لم تحبه قضاء وقدراً أيضاً ، فسعى له العفريت لاستمالة قلبها إليه بالوسائل التى نعرفها فى القصة ؛ فلما لم يفلح علم أن كل شيء بقضاء وقدر . ويمكننا أن نقول نفس الشيء بالنسبة لبلقيس ومنذر وغيرهما ، فبلقيس أحبت منذراً دون أن يحبها ، فسعت لاستمالة قلبه إليها على غير جدوى ، وبقدرة قادر استبان لها أن كل ذلك كان بقضاء وقدر . وأحب الصياد الجارية التى اشتراها بماله ولم تحبه ، فسرحها
١٠ من فوره ، ولم يحاول أن يستميلها إليه كما فعل سليمان ، وعرف من البداية أن كل ذلك بقضاء وقدر . عرف ذلك لأنه لم يعط ما أعطى لسليمان من القدرة التى تحجب المرفة من الإنسان وتجنح به دائماً — على حد ما يفهم من فلسفة الأستاذ الحكيم — إلى أن يسيء استعمالها فيحاول المحال . يقول على لسان سليمان :

« هى القوة يا بلقيس تغمض بصائرنا أحياناً عن رؤية عجزنا الآدمى ، وتنسينا ما منحنا من حكمة ، وتزين لنا المضى فى كفاح لا أمل فيه ... فنسير بغرورنا تحت نظرات الرب الساخرة ... آه يا بلقيس

ليس يحتوى على الحكمة شىء غير القدرة ... الآن أدرك لماذا أعطانى ربى وهو السلطان والغنى والقدرة إلى جانب ما سألت وهو التمييز والحكمة » . فليس يتميز الإنسان إذن إلا بما يحوطه من مظاهر الحياة الخارجية .

وكان الطبيعى أن تؤدى تفاهة الشخصيات وسطحيتها إلى خلوها من الصراع الداخلى (من أى نوع كان) خلواً يكاد يكون تاماً . أما الصراع الخارجى ، صراع الإنسان ضد القوة الخفية التى أراد الكاتب الكريم أن يجعلها أساساً لمسرحيته ، فلا يكاد يحسه القارئ فى شىء ؛ لأن الإنسان فيها إذا صارع هذه القوة ، لم يفعله إلا بوحى من هذه القوة نفسها ، وكان صراعه معها أقرب إلى العبث منه إلى الجد ، لأنه صراع مدبر مصطنع ، صراع الملهاة لا صراع المأساة ، صادر من شخصيات سلبية ، إذا صح لنا أن نستعمل هذا التعبير . وإذا خلت التراجيدية من الصراع ، فقد فقدت كيانها كما يذهب الأستاذ الحكيم نفسه فى رأيه الذى أشرنا إليه فى المقال السابق . وكانت نتيجة كل ذلك لصوق الرواية بحرونها ، وضحالة حوارها وجموده . نعم نحن لا نخفى إعجابنا الشديد بمهارة الأستاذ النادرة فى إدارة الحوار ، وقدرته الفذة فى جعله يتتابع بعضه من بعض سلساً كالماء ، دون أن يبدو فيه أدنى تكلف . ولكنه خلو من الحياة والحركة ؛ إذ كان أصحابه شخصيات مجردة منهما . وذلك يجعل إحساسنا بوجود تلك الشخصيات الإنسانية التى مسخت أحجاراً ؛ يجاء حوارهم حواراً غير مسرحى ، وصار الكتاب من الوجهة الفنية ، أشبه بمحاورات أفلاطون مثلا منه برواية تمثيلية . فلولا تدخل الكاتب فى كل حين ليلقى بحكمه وأحكامه الخلقيه والميتافيزيقية لتعسر على القارئ فهم غرضه من روايته ونظرته للحياة . من مجرد تتبعه لمسلك أبطاله النفسى (إذا سلمنا بأن فى الرواية مايشعر بما يدور فى طوايا نفوسهم) والخارجى . ولعل الفصلين السادس والسابع من الرواية خير شاهد على مانقول ، ففيهما يحاول الأستاذ أن يلخص وجهة نظره ، ويحرر دعواه الفلسفية ، ويستخلص مغزى قصته ، التى كان قد نوى أن تحملها عنه أحداث الرواية إلى القراء والشاهدين ؛ يفعل ذلك على نحو ما يفعل مؤلفو الدراسات والرسائل العلمية فيما يسمونه بالخاتمة Conclusion .. ولكنه يرسله على شكل حوار على لسان أبطاله . والواقع أن هذا العمل ضرورى لإيضاح مقاصد المسرحية ولكنه عمل غير مسرحى

والآن إذا أردنا أن نجمل فى سطور ما فصلناه فى مقالاتنا الثلاثة قلنا بأن أساس الفكرة التى بنى عليها الأستاذ توفيق الحكيم قصته غير سديد ، ولا سيما أن استخراج هذه الفكرة من وقائع المسرحية أمر عسير ، بل قد توحى هذه الوقائع نفسها على ما فيها من بعد عن واقع الحياة الحقيق — بعكس الفكرة المدعاة ، وفى تلك الحياة يبدو التناقض من وقائع الرواية وبين الحكم والأحكام التى ينطق بها المؤلف أبطاله . ولما كانت فكرة الرواية غير جديرة بإثارة الجمهور أو تحريك عواطفه ، كان حظ الرواية من النجاح فى التمثيل ضئيلا . وإذا أضفنا إلى ذلك تفاهة شخصياتها وحرمانهم من الحركة الذاتية ، تقول كل هذه الأشياء مجتمعة تبعد عن الرواية صفة المسرحية الحقة بعداً شاسعاً . كما أن امتثال الأشخاص النفسى ، إلا فيما يضيف المؤلف فى حكمه على لسانها من قلق لا يظهر أثرها فى مسلكها فى الحياة ، مما جعل الرواية خالية من كل صراع .

وبعد فتلك دراسة إجمالية للرواية لا تدعى لها الشمول ؛ فقد تركنا التفاصيل جانباً ، ولم نهتم بتحليل حوارها ، وبيان مقدار ما فيها من ملاءمة بين أصلها ومعانيها . وإذا كنا قد سجلنا عليها بعض المآخذ ، فإننا نعترف لمؤلفها الكاتب الكبير بأصالة فنه ، وصدق فهمه للأدب فهماً يخالف عما هو شائع لدى كثير من كتابنا — ولا سيما فى باب القصة — من أن الأدب فن مهارة وحذق يهدف إلى توليد المعانى المبتكرة البراقة المعجبة وخلق الناجآت العجيبة المسلية دون أن يكون فيه أثر لنماء الفكر الجدية . وإذا كان ذلك حكمنا على سليمان الحكيم ، فإننا نعتقد أن أدب الأستاذ توفيق الحكيم وفنه أوسع وأخطر من أن يمثلها كتاب واحد من كتبه . لذلك نرجو أن تتاح لنا فرصة قريبة ندرسه فيها دراسة تليق بمكانه فى نفوسنا ومقامه فى نهضتنا الأدبية . ونرجو أن تحتل هذه الدراسة مكانها فى كتابنا من المسرح فى مصر الذى نعمل على إخراجه إن شاء الله .

محمد القصاص
دكتوراه الدولة فى الآداب من جامعة باريس